النفس الانكليزية

ما تبرح امة من [illegible] ما تعهده الانكليز فيه وكأنه خلق مستحكم فيهم مع الزمن وتوالي الاخلاف عن الاسلاف وتسلسل فيهم حتى انتهى بالمحدثين ومن درس تاريخ هذه الامة يراها تصبر وتصابر لاول وهلة وما تطيش سهامها فاذا رأت الفرصة وثبت وثوب [illegible] [illegible] حالك .

تذكرت هذه المقدمة من مسألتين تجلى فيهما دهاء الانكليز في التاريخ وهو ان الحروب الصليبية التي دامت في سورية نحو قرنين وأهرقت فيها الدماء سيولاً لم تقعد وتمنع دول النصرانية عن حرب دولة الاسلام لا يتدخل ريشاردس قلب الاسد صاحب انكلترا اذ ذاك في الامر فعرض سراً ان يزوج اخته من ابي بكر بن ايوب شقيق الملك الناصر صلاح الدين بن ايوب ولولا ان القسوس [illegible] صاحب انكلترا عن اجراء هذا العقد فانظر الى دهاء هذا الرجل وهو في القرون الوسطى وفي صدد حرب دينية كيف يتسامح بزواج اخته من غير ابن ملته حرصاً على مصلحته . قال ابو الفداء في حوادث سنة سبع وثمانين وخمسمائة : تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك الانكلتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وانكروا عليها ذلك الا ان يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال .

هذا هو الباب الاول الذي طرقه ملك الانكليز فلم يفلح لتعصب قومه وكان قد رأى ان ملك الالمان جاء عن طريق الاستانة براً الى فلسطين في مئة الف من رجاله فهلك معظمهم في بلاد الارمن ولم يصل منهم الى ساحل [illegible] سوى الف نسمة حتى ان ملكهم هلك غرقاً في نهر في الاناضول كان انغمس فيه ليستحم فايقن ريشاردس ان امر هذه الغارة يطول وان الحمية التي دعا اليها بطرس الراهب لاستخلاص بيت المقدس من ايدي المسلمين لا تجدي هذا القدر من العناء فطرق باباً ثانياً بعد ان شاهد حال الصليبيين قد اضطرب وطلب الصلح بعد ان يئست الرجال في عكة وكان يخابره صلاح الدين في معنى الصلح فبعث في احدى تلك السفارات يقول لصلاح الدين لا يجوز لك ان تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لي ان اهلك الفرنج كلهم . قال القاضي ابن شداد بعد ان ذكر ما عرضه ملكهم من شروط الصلح المجحفة : فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة اخرى وكان مضطراً

الى الوداع وبعد عودتهم اضطرارا . والله المسؤول في ان يكون السلطان مكرها فانها [illegible] حية ولا تشد القتال مدة طويلة . ولقد كثرت [illegible] ملك انكلترا صادق جماعة من مماليك صلاح الدين ودخل معهم دخولاً حقيقياً بحيث كانوا يجتمعون به في اوقات متعددة وكل ذلك في كل هذا يخالف [illegible] حتى توصل الى مأربه الا وهو استرجاع بيت المقدس الذي انتزعه صلاح الدين منهم

ثم شرع [illegible] الى [illegible] اهل عكة من [illegible] لان [illegible] قد ضاقوا ذرعاً بما انتهى اليه [illegible] على تلك الديار فبادر صاحب انكلترا الى عقد الصلح سنة ٥٨٨ هـ وسبب ذلك كما قال ابو شامة ان ملك الانكليز مرض وطال عليه البيكار (؟) فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجب السلطان الى ذلك ثم اتفق رأي الامراء على ذلك لطول البيكار وضجر العسكر ونفدت نفقاتهم فاجاب السلطان الى ذلك واستقر امر الهدنة ولم يحلف ملك الانكتار بل اخذوا يده وعاهدوه واعتذر بان الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف الكندهري ابن اخيه وخليفته في الساحل وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج . ووصل ابن الهنفري وباليان الى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين واخذوا يد السلطان على الصلح واستحلفوا الملك العادل اخا السلطان والملك الافضل والظاهر ابني السلطان والملك المنصور صاحب حماة محمد بن الملك المظفر عمر والملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والملك الامجد بهرام شاه ابن فرخشاه صاحب بعلبك والامير بدر الدين يلدرم الياروقي صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر والامير سيف الدين علي بن احمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار

هذه هي المسألة الاولى التي ثبت فيها الدهاء الانكليزي في اجلى مظاهره . والمسألة الثانية وهي احدث من الاولى عهداً ولكن [illegible] من المسائل كلها سلسلة دهاء هي مسألة الاستعمار [illegible] الانكليز [illegible] جديد القارة الاميركية اكتشف كريستوف كولمبس اميركا ولقد تقدمت البرتغال غيرها من الدول لاستعمار الارض ونحت نحوها اسبانيا وهولاندة وقد بلغت هذه الدولات الثلاث اوج عظمتهن الاستعماري في النصف الاول من القرن السادس عشر اذ كانت انكلترا لم تأخذ بعد [illegible] الاستعمار [illegible] انكلترا ولكن هذه الدولة [illegible]

الاربع الاول وانشئت لها دولة بحرية عظمى بسبب صلح اوترخت سنة ١٧١٣ (١) وتطمع الى الاستيلاء على البحار ولكن هذا الدهاء لم يؤخر الانكليز عن دخول ميدان الاستعمار فقد هيأ لانكلترا الاستئثار بالاتجار مع اميركا . وانكلترا اقرب الدول الى العالم الجديد وشطوطها وهي تمتد على مسافة ٧٩٠٠ كيلومتر اي ضعفي شطوط فرنسا واكثر الدول البحرية الاربع قرباً الى شطوط بحر الظلمات من جهة الآخر فقبل سنة ١٦٠٠ ميلادية لم يكن لانكلترا مستعمرات خارج اوربا وبالدهاء السياسي افتتحت انكلترا الجديدة وفيرجينيا واخذ شارلس الثاني سنة ١٦٦١ مملكة الهند وكانت سبب غنى انكلترا وعظمتها اذ ابتدأ احدها ناس من تجار الانكليز دخلوا مع الجنود دخول السل في جسم العليل وكان من امرهم ما كان .

وهكذا لو تصفحنا التاريخ لشاهدنا امثلة كثيرة في الدهاء الانكليزي الذي لا يشبهه دهاء في الامم وانما ان الثبات والصبر والتأني والسكون الذي خص به هذا العنصر هو الذي كان سبب نجاحه في اعماله فاشتهرت جنوده على قلتها وندرتها وسياسته اشتهرت بحذقها على جفائها والتاريخ اعظم مترجم عن الامراء والامم وبه تكشف حقائق البشر وخصائص الشعوب

ولهذا الدهاء والتأني والصبر اسباب طبيعية وعمرانية في انكلترا بحث فيها علماء الاجتماع والنفس كما قاله اميل بوتمي من كبار علماء فرنسا (٢) ان القوى الطبيعية هي من جملة الاسباب التي تؤثر في تربية الشعب . وهذه القوى هي صورة الارض الظاهرة وجبالها وانهارها وبرها وبحرها وقسوة مناخها او لطافته ووفرة ثمارها الارضية او ندرتها . فان تأثيرها قديم كالانسان ولا سبيل الى ان نجد في التاريخ دوراً لم تؤثر هذه الحالات في البشر واذا كان عرض الانسان قليلاً وابداله فذلك بالشيء من مجموع الاسباب وهذه الاسباب هي التي سماها تين العالم الفرنسوي « المحيط » او البيئة والعادات والقوانين المزبورة على

---

(١) اوترخت مدينة في هولاندة وولاية تسمى باسمها وسكان المدينة نحو مئة وعشرة آلاف وفيها مدرسة جامعة كلية ومعامل للمخمل (القطيفة) مشهورة منذ القديم وفيها عقدت انكلترا وفرنسا واسبانيا وهولاندة الصلح سنة ١٧١٣ انتهت بها حرب ارث التاج الاسباني

(٢) كتاب في الروح الانكليزية في السياسة خلال القرن التاسع عشر لاميل بوتمي
Emile Boutmy. Essai d'une psychologie politique du peuple anglais au XIX^{e} siècle

الحجر والمذاهب الدينية والاعمال التعصبية وغيرها كانت لاول الامر نتيجة المحيط الطبيعي فاصبحت مع الزمن ذات قوة تملك وحياة خاصة وصارت تولد بذاتها شعوراً وتتسرب الى الاسباب الطبيعية العاملة ولكن هذه الاسباب الرئيسة ما برحت تمنح هذه الجمعية البشرية التي كانت في النشأة اليها وما اليوم تأثير كبير حتى انها تأتي من الاخلاق . الراسخة والمذاهب الارثية فتغيرها وتفعل فيها فعلها في اهل الاجيال الاولى

انكلترا من بلاد الشمال وما بين بلاد الشمال من كر امتازت به فليس لاقليمها ما يعادله بين الاقاليم لانها تتمتع بجو يكاد لا يختلف طوره فلا ترى في الشتاء تبدلا في الهواء من شمالي انكلترا الى جنوبيها في مسافة ثمانمائة كيلومتر فيستطيع سكان بريطانيا ان ينتقلوا من ناحية الى اخرى بدون ان تتأثر اجسامهم من هذا التنقل وتمتاز انكلترا عن سائر بلاد الشمال باعتدال خطوطها وخصب تربتها في حين يضعف الهواء المرء في اواسط بلاد روسيا او في شمالي روسيا فيكتفي الروسي بما يحضر لديه من حاجاته وذلك يقلل فيه فكر الاقتصاد في الاعمال اما الطبيعة في بلاد الانكليز فتنادي ساكنها قولها الملك بأعمالك اذا تراخيت وتنتقم اذا جمدت . فالهواء في بلاد الانكليز رطب ولكنه صحي وثقيل بحيث يكاد يصعب استنشاقه احياناً والجسم يهول فيه اذا لم يتغلب عليه بحركات كثيرة . ولذا انكلترا الطامع بطول القامات ضخام الاجسام اشداء البنية وفيها من المعمرين الشيوخ اكثر من كل بلد من بلاد اوربا . والارض الانكليزية بما تترطب به من الضباب وبغمرها من هطول الامطار تحتاج ابداً الى الدوام الى التجفيف بالقناطر حتى لا تتحول بطائح او غيابات ولا يفضل تمهيدها خصبة مرعية . ومناخ انكلترا يحتاج الى الغذاء الكثير ولاسيما اللحوم وارضها مستعدة كل الاستعداد لتربية الماشية والمرعى فاصبحت من الاحوال بدخل في مضاهي الى ارض بريطانيا العظمى فيصبح الصيد في طرف الثمام .

وبالنظر لرطوبة الهواء بل الهواء واصفرار الشمس بما يغطيهما من الضباب الذي يجعل اشعة الشمس عادلة لاتزال القائمة سائدة شطراً من النهار يضطر معه ابن تلك البلاد ان يحسن رداءه ومسكنه ودفئه ويبحث عن الاعمال التي تحتاج الى كدح وكد وهو في حاجة الى جوخ ثيابه والى جدران غليظة لسكنه فتراه يصرف جزءاً مهماً من وقته في النسج والتقطير واستخراج الفحم او تراب النفط المدعو Coal خلافاً لابن جنوبي اوربا فانه لا يحتاج الى مثل تلك المدة ليعيش والانكليزي اذا لم يجد لسد حاجاته

في ارضه يجلبها من الخارج بواسطة المقايضة مع ما يصنعه ابناء بلاده من المعامل والمناجم ويسهل عليه تناول ذلك بما له من وسائل النقل السريعة الرخيصة الاجور

ولما كانت الطبيعة الخارجية للامة الانكليزية مدرسة ابداع ونشاط وحذر وتدبر فنشأت هذه الفضائل من اسباب جلب المصانع ودرء الفقر وكانت من كليات الاخلاق في هذا الجنس وديدنه الجهاد للحياة وهو هنا اصعب منه في كل امة الى ان يدفع منه بالانتخاب الطبيعي كل من لم يرزقوا هذه الصفات اللازمة كالمرضى والمدمنين والجبناء والبطالين فلم يبق من هذا العنصر غير الاقوياء اهل الشجاعة الشديدة وأصل ذوق العمل بنشاط دائم متواصل في النفوس حتى صار كأنه ارثي فيها

قالوا ان الشعب الانكليزي شعب اجتماعي وهذا يصدق على كثير من الشعوب ولكن العامل الاكبر اليوم في هذه الامة الميل الى العمل الحر والميل اليه حبًّا به ٠ وما الحياة السياسية في انكلترا الا ناشئة من الميل الى تمرين القوة والميل اليه بطائل وبدون طائل ومن يجتاز البلاد الانكليزية يشعر بحاجة الامة الى هذا التمرين والى هذا الصرف من القوة عبرة من الحركة على السيارات واستعمال [illegible] الالعاب الشاقة فيوقن بان الرياضات البدنية الشديدة ليست في انكلترا مدعاة للتسلية بل هي ضرورية للجسم حاجة طبيعية لا تقل في مسيس الحاجة اليها عن الجوع والعطش

وكل من زار لندرا يشهد الرجال من الانكليز يمشون في الشوارع عدواً لا تراهم في سيرهم متحداً يملك ان يذهب بك الاعتراض عليه او يكسو طلعتهم بدون ان ينظروا ذات اليمين وذات الشمال متمهلة ومتلفتة فهم لا يضعون نصب اعينهم غير الغاية المعينة التي هي هدفهم ومقصدهم حتى اذا وصل العامل الى مكتبه او محله ينصرف اليه بجملته ولا يدخل فيه غيره ولا يلتفت الى ما يصده او يقطع عليه في غير ما هو بسبيله فتراه لا ينقطع دقيقة عما هو مأخوذ به ولا يني في مهمته ولذلك كانت اجرة العامل الانكليزي ارقى من اجور عملة الامم الاخرى لانه لا يلبث ان يأتي الى العمل ويعمل نحو ضعف ما يعمله الايرلاندي او الالماني مثلاً ٠ وهذا الروح الخاص يولد في جميع الفروع عملاً مدهشاً

ولقد ترى نساء الانكليز لا يستنكفن من حمل يعالجنه فيكون الجيل منهن غاية ينصرفن الى تأسيس جمعيات الاحسان ويخدمن في المستشفيات ويعملن اعمالاً قد عدها بعض الامم المتمدنة من الاعمال الوضيعة وكثيراً ما يكون خدمة الانسانية وقد دخل خمسون السامرة في الحزب الحر في انكلترا وشاركن الرجال ومنهن المطالبات بحقوق الانتخاب

والمؤمنون من الانكليز وهم لا يؤمنون به يتصرفون عن كل شيء بل يعملون باجتهاد ويجتهدون في الحياة لا يصدهم ما تعلموا القسيس به من العناية عن النظر في دنياهم

ويعد هذا الذوق واشتراك العمل يجب ان ننظر اليهما كأنهما خاصة جوهرية موصوفة لازمة اختيارية لهذا الجنس فيما يتصور الانكليزي حيث يذهب كلاهما الاسباب المكتومة من [illegible] وهما مفتاح اسراره وان الدواعي التي ادخلت ضرورة العمل في هذا الجنس قد اخذت اليوم من شأنها لذلك لان كثرة الغنى العقلي والمادي قد زاد عدد الاغنياء والمتعطلين [illegible] الشرع في [illegible] والامة الانكليزية القريبة الارثية التي بها يعرف الانسان قانون العمل ويقول به [illegible] الكسل والضلال في هذا الوسط الجديد اكثر [illegible] عدد [illegible] غرض حكومته في طلب [illegible] الانكليز يشترون [illegible] من موائد لها وكل هذا على الحالة لا تغير الصفات التي ورثها الانكليز بالاحداث فيهم مدة قرون .

للاقليم في انكلترا تأثير مهم في الشعور والمدارك ففي البلاد التي يخف هواؤها ويكثر تكهربها التي تقوى الاعصاب وتشتد الاشعة ويكون الاحساس في اعظم المرتبة . ومثل الحس يكون التصور الطبيعي اي حاسة تقابل المحسوسات فالفكر الانكليزي ثابت [illegible] الاعمال الفرنسية تكون قريبة الحرارة والانكليزية منها في الابطاء مثلاً لان الاول قابل للاضطراب كالثاني . وقد شاهد خصوم الانكليز من عسكرهم في الحروب [illegible] ولم يكونوا يتأثرون لاحداث الفتن والقلاقل [illegible] يكسر [illegible] الارواح الصامتة

ان ارض انكلترا بما احيطت به من الرطوبة والامطار الغزيرة والضباب المتواصل والطبيعة الساكنة قد اثرت في نفوس اهلها حتى لم يجعلوا في الوجود ما يشغلهم ولذا شغلوا بحاسة الفهم وقل كلامهم كما قل شعورهم بما يأتيه من خارج والكلام كالشعور والفكر يرتقي [illegible] بالرفاهية وخصائل العيش وهو الرمز اكثر [illegible] العامة والفرع . ولقد وصف الفيلسوف تين الشعب البريطاني بقوله من السرور الذي يشغفه السكوت وهو من اعظم ما الطبع اليه نفس كل انكليزي ان يجاهد في امر ويتحمل المشاق ولا يتناول عما يرى . وقد اعرب شاعرهم تنيسون عن مثل هذا الفكر شعراً جاء معناه : ما اعظم على النفوس ان تقف دون غاية وتحمل قواها حداً وان تصدأ كالسيف يلقى على

الحائط بدلاً من ان يلمع في يد حامله ويصقو بالاستعمال . ليس استنشاق الهواء هو الحياة بل انما اذا فقدنا كثيراً فقد بقي علينا كثير فما كنا عليه ما برحنا فيه : قلوب ابطال شأنها التساوي بانفسها اصبحت على الزمن وبيد القدر نهب الضعف ولكنها مسلحة بارادة شديدة في مضائها وبحثها وايجادها وان لا تلين قناتها ابداً .

تقل في العنصر الانكليزي على الجملة الكفاءة لتصور الافكار العامة ويكره النظريات المجردة كما يكره المذاهب المقررة فليس للانكليزي شيء من المجردات يشغله بل تراه على الدواء مأخوذاً بضرورة العمل أليس معنى هذا ان حاسة العموميات ضعيف تركيبها في انكلترا بل ان العقل عملي لا يقبل الا ما يلزمه وينفعه يعرف كيف يضبط نفسه ويحدد حدوده حتى اذا سار بنفسه سار صبوراً تابعاً لا اسيراً نكراً فعقله لا يشبه قائداً في جيش يفكر في وضع خطة الهجوم والقتال بل عقله يشبه ضابطاً يقود بعيداً عن ميدان الحرب قسماً من الجند الاحتياطي المساعد فلا ترى في هذا الضابط قابلية لان يكون في الطليعة ولكنه يجيد في اتخاذ مركزه في النقط التي تجاوزها الجيش المهاجم وينظم فيها المقاومة

لاشيء يقع على عقل الانكليزي من الغرابة اكثر من انكاره القوة الطبيعية Naturalisme والنظريات في الالهيات والمقولات بل يرى ان اجنحة الفكر لم تبرح في نمو ولذلك لم تستعد للطيران مسافات طويلة بل هي تساعده فقط على السير فاذا ارتفع هنيهة وحلق في الجو فذلك ليعود الى الارض بعد مدة قليلة وهذا ما دعاه يفكر في الامور القريبة التي اكثر ما تكون مساساً به مباشرة وله من مشاغله في تحصيل ثروته وتحسين زراعته ما يصده عن الحق ولا يفرغ ذهنه الى النظر الى الاشباح الفارغة فهي بعيدة من الارض حداً غريبة عن الحياة الدنيا غير ملتئمة مع شروطها وضرورياتها ولذا ترى الانكليزي في مسائل الدين لا يتعدى افق العالم المدقق باحوال الانفس والاخلاقي الذي يبحث في المرئيات وليس هو صوفياً او منكراً ولا موحداً وهو لا ينظر الى القواعد الموضوعة والالفاظ بل ينظر الى الغاية من التدين اكثر من الواسطة وهكذا هو في السياسة فلا تقوم حريته فقط على الدستور الذي يبيح الحرية على التقاليد الموروثة التي تحمي حمى الحرية القديمة المتأصلة فيه

من غريب حال الانكليز ان كثيرين من حملة العلم فيهم لم يتعلموا العلوم اللازمة للالمام بالتربية العامة فهم اعصابيون لا تشوبهم شائبة وان من يحاول في انكلترا ان يحدث

احد علمائهم في العلم المجرد لا يجد من يستمع لكلامه فالعالم الطبيعي عندهم هو الذي يعرف كيف يصنع نموذجاً ميكانيكياً يطبق فيه العلم على العمل فلا عجب انك لا ترى في كتبهم الا الكهربائية الا حبالاً مرسومة تمثل وتشد ومواسير تقطر بالماء وغيرها ينتفخ وآخر ينقبض وهكذا انكلترا في مدارسها لا تهتم بصدد ما الا ما يقع تحت حسها ولا تقص في قصصها الا اوائل حادثات الطبيعة وكذلك تاريخها ورواياتها التمثيلية وفلسفتها فان فلسفة اوغست كونت الحية ومخترعها فرنسوي وجدت لها اعواناً في انكلترا اكثر مما وجدت في فرنسا لانها صادفت هوى في افئدة القوم

فهذا هو الشعب الذي قدر له ان ينشر البروتستنتية بنشاطه ويخرج من الكنيسة [illegible] اذ كانت دين سلطة القوة الروحية تقتل وتحظر وتعاقب والناس معها مكرهون على اتباع تعاليمها اما المذهب البروتستنتي فهو دين الحكومة الذاتية الوجداني فالاول موجد النظام والقاعدة والآخر محافظ النشاط ومبدئه وهذا هو الدين الذي يناسب امة خلقت لتعمل .

ان تأخر سن الزواج في شبان الانكليز وعفة النساء الانكليزيات وتعدد الاسر والبيوت كل ذلك من اخلاق الانكليزي الحديث كما كان قديماً من خصائص اخلاق الجرمانيين سكان انكلترا الاصليين . وامتازت الامة الانكليزية من بين الامم بانها امة متجانسة ولم تقترن بغيرها فالانكليز وهم [illegible] انكلترا هم جرمانيون من بلاد الشمال ومن احفاد الجرمانيين انكليز وجوت وسكسونيون وكلهم من عنصر الماني والذين جاؤا بعد لاستيطان انكلترا مثل الدانيمركيين والنورمنديين هم فروع تشعبت من نفس تلك الدوحة

وان ما يرى من شدة بأس الانكليز وقوة عضلاتهم يذكرنا بقول امرسون فيلسوف اميركا قالت الطبيعة قد انى الزمان للرومانيين وقد انتهوا من عمل المجد واني اريد ان اؤسس مملكة جديدة وساختار عنصراً شديد الشكيمة كلهم ذكور ولكنهم باجمعهم ذوو قوة وحشية ثم لا اعارض فيما ارى من المبارزة بين الذكور القساة الكثيرين الا فليدم حال الجاموس قوله في رأس الجاموس الآخر فيبقى الرأي لاكثرها قوة فبالتالي تحمل اريد اتمامه يحتاج الى ارادة وعضلات . وهؤلاء هم الانكليز الذين لا يمتزجون خارج بلادهم بغيرهم من الامم ولكنهم في ارض اكثر الامم حربية واكثرها كراماً وابصرهم الدول الغرباء ليست انكلترا جزيرة بل هي قارة فهم من امة التشبث في افكار

ومنازعها اتيها من اوربا لم تمسها سوى مسحة مما اقتبست البلاد الاخرى ولكن كان اقتباسه موقتاً كأنه قشرة او هو سطحي لأنه لم يتعد الازياء اما سواد الشعب فلا يزال على شيء في منازعه من اخلاق خاصة للأخلاق الاولى وبذلك كانت دواعي الاختلاط قليلة جداً بين الانكليز وغيرهم ولاسيما بين الامة الانكليزية وسكان الولايات في اوربا وفكره كالشراب الذي لا يزال في كأس من الاهتزاز خمر وكشف ولم تعد له تلك الميوعة التي تؤهله الى الاختلاط بشراب آخر

وكان لهذه الصبغة الخاصة وقلة الرقة في الاخلاق الانكليزية نتيجة مهمة شوهدت في كيفية الاستعمار البريطاني وفي نجحه . فلا يزال العنصر الانكليزي بعيداً من العناصر في البلاد التي اخضعها لسلطانه فهو كالمعدن البعيد جداً عن نقطة الذوبان فلا يتأتى ان يحصل منه ادنى مزيج ولم يحاولوا بانفسهم تلك الشعوب التي افتتحوا بلادها وما تاقوا في استمالة قلوبهم فما عرفوا الا ان يحكموهم ويستنزفوا مادتهم ويدوسوهم او يفنوهم .

اما الانكليز فضلاً عن عدم كفاءة في فهم مناحي العناصر المحتلة وان يتقربوا اليها ليأخذوا بايديها ويقوموا معتقداتها واباءها مما يعتقدونه ايلاماً من العاطفة السوأى ومثل ذلك يتجلى في ادارتهم الهند ومصر . فالانكليز يأتون تلك الشعوب بثروة مادية ونظام من وعنى قوى سلطتهم في بلاد الهند مثلاً على احسن طريقة ونظام مدقق قوامه الحكمة والادب وهم فيها بعد قرن من الزمن لم يخرجوا من كونهم ابداً جماعة لا يألفون ولا يؤلفون وكانت الهند منهم بمنزلة ارض الرجاء عرباء والاحمرات لهم بالخلاص من ربقتهم . ولن يوماً يغادرون فيه البلاد المستعبدة لا يزيد في حسن اهليها ولو ذهبت بذهابهم الرفاهية والسلام .

حكم الانكليزي منهك لقوى العناصر المحتلة وهو استبدادي وكثيراً ما يكون قاتلاً في البلاد التي يكون فيها الوطنيون بحال معهم لا يبالون بشئونهم وارادتهم لان هؤلاء الفاتحين لم يرقوا احتقاراً من قلب وصاياتهم ولا رفقاً على الضعفاء والضعاف بل لا يشعرون ولا يحنون على الوطنيين والمنحدرين لهم .

ثم الانكليزي اكثر الامم اغراقاً في الابتعاد من الناس والعزوف عن مجتمعهم فهو يشعر بانه اقل من غيره علاقة بالمجتمع البشري وقل ان يقتبس من علائقه مع غيره شيئاً يستفيده في تركيب اخلاقه ولا يأبهون عما يفكرون فيه واذا بحث احد مجرد

لا يدخل التطفل في حوائجه واعماله وهو ما يفصله عن العالم وعن غيره من الامم بل هو بعيد عن جاره الذي يساكنه في حي واحد والبيت الذي يعيش فيه ويباشر فيه نفسه فلا يكون صورة بسيطة عما يراه في الخارج فكأنه من [illegible] تحت القشرة في نوع من الطبقات [illegible] كقشرة الارض وما يجري عليها من مجرى الشمس لا يزيدها صفراراً ولا احمراراً

الانكليزي لا يشعر بالفخر من البشر وحده ولا يجد حاجة ان يفحص ما عمله في غيره ولا يسره [illegible] ان يقف [illegible] الامل [illegible] خلا الشؤون التي تمسه مباشرة لا يهتم الا بما له علاقة بالمسائل الوطنية العامة التي تمسه ولكن لا مباشرة بل من طرف [illegible] [illegible] الانكليزي الا [illegible] الاحزاب الفرس وهو لا يريد الملك ولا [illegible] [illegible] في الصدق ويقصد انه يجب لا يجيء لكل واحد من هؤلاء [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] يصعب على الفرنسيس [illegible] في انكلترا وكيف يحب الانكليز [illegible] لا يحبون [illegible] الى يعطونا [illegible] كل [illegible] لا [illegible] يكون . يحب ان [illegible] كل [illegible] ولا [illegible] باحد ولا [illegible] [illegible] ولا [illegible] الى احد .

ومن الغريب ان هذه الامة [illegible] [illegible] الاستقلال [illegible] في امورها الداخليه من اكثر الامم ميلاً الى الاشتراك [illegible] [illegible] ومجامعها وشركاتها المالية بمعاقبة عن احد . [illegible] [illegible] الفرنسوي [illegible] نجاح الانكليز في الزراعة والتجارة والصناعة [illegible] انهم [illegible] [illegible] [illegible] ويشرفون على التدبير [illegible] [illegible] [illegible] ويحسبون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ومن دنا [illegible] [illegible] [illegible] جميع [illegible] العامة والخاصة [illegible] [illegible] الفيلسوف الانكليزي [illegible] [illegible] شرح هذه [illegible] [illegible] السكون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الانكليزي [illegible] الى الاستعداد ولا [illegible] [illegible] العمل من حيث هو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لا [illegible] كتبها في [illegible] وفي مع هذا الرقي [illegible] [illegible] فرنسا التي [illegible] كتابها الى الآن [illegible] [illegible] انهم [illegible] ومن اكثر الاستعداد من هؤلاء لا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

ان [illegible] من [illegible] الانكليزي [illegible] [illegible] [illegible] حب [illegible] [illegible] [illegible]

المجهول ليس فيه الا على ضعف ايضاً فالانكليزي يبقى انكليزياً ويعيش عيشاً انكليزياً حيثما ينزل . والانكليزي اقل من الفرنساوي والايطالي في اليأس من النجاح واكثر منهما هزءاً بالمتاعب والمخاطر لثقته بان لها حداً تقف عنده ولا بد من حل مشكلاتها وقلما تراه يحسب حساباً لنكد الطالع فترى الشاب يتزوج من فتاة وهو في مقتبل العمر ولا يطالبها بائنة (دوطة) بل يقترن بها بلا مهر ويقدم على تأسيس أسرة فيزيد نفقاته ثلاثة اضعاف ما كانت عليه والصانع يقدم على ادخال اصلاح في عمله بجرأة ويتخذ وسائط النجح وهو يعلم انه لا يلبث ان يتم اصلاح صنعته حتى يقوم صانع آخر ينافسه ولكنه يكون استفاد من الفترة بين اصلاحه واصلاح منافسه وترى المهاجر منهم لا سبد له ولا لبد ومع هذا يكدح ويرزح تحت اثقال المتاعب وهناك سبب آخر واعني به الهوى في العمل او التفنن فيه ورقي الحركة والتذوق في العمل من اجل العمل وكل ذلك مما تقتضيه حالته الطبيعية . وانا ارى المرسلين منهم يتغربون في الارض ولا يخافون بل يتعزون بما يتم على ايديهم في الاقاصي وينامون ملء جفونهم شاكرين ويعملون اعمالاً في السر ابتغاء وجه الله

ومن خلق الانكليزي انه متشدد في الاحتفاظ بالحالة الحاضرة فارباب العقول الغريبة في تصورها كثيرون ولكنك لا ترى فيهم احداً يميل الى الثورة وقد اشتهرت انكلترا بانها بلد التقليد المتعصبة حتى على التبديل اللازم وثلاثة ارباع سكانها لا يشعرون بالحاجة الى ادخال تعديل في القوانين والاخلاق والربع الآخر يقبل بالتبديل في بعض احوال مخصوصة ويتعلق بها ويلاحقها بنشاط ولذا رأينا الشعب الانكليزي قد جاهد لاول وهلة ربما ادخلت عليه اساليب الارتقاء حتى المادي منه فلما دخله صار في لحمه وعظمه وهكذا شأن الامة العظيمة تتشدد في تقاليدها وتستنكف في الغالب عن قبول كل جديد الا اذا ثبت لها بالتجربة ثبوت الشمس والقمر .

مهما بلغ من انحطاط مكانة الرجل الانكليزي في المجتمع ومهما بلغت حرفته من الامتهان لا يحسد من كان اعلى منه منزلة وله من عمله الذي يستمتع بنفعه اعظم سلوى ولذلك قل ان مالت الطبقة العاملة في انكلترا الى تغيير نظام الاشراف في المجتمع وذلك لاعتقادها بان الاعمال مقسمة لان الحظوظ متباينة . وبينما ترى فرنسا تقول للوزير كن فكان مهما كان وضيعاً وللنائب كن نبيلاً فكان مهما كان منحطاً في اصله وللشريف كن شريفاً فيكون تجد انكلترا لا تسمح لوضيع ان يعد في جملة العظماء الا بعد [illegible]

الاجيال وذلك على نظام وترتيب تدريجي لان القوم بالطبيعة في انكلترا تنشأ في كل شيء ولذلك اقتضى ان يكون ارتقاء الناس كذلك

من خصائص الانكليزي انه يشبه ميكانيكياً تعلم الحيل الميكانيكية بالتجربة لا بالنظر فيرامي ان يشتغل بالعمل آلة ما امكن من النتائج ولا يحرص على تبديل محركها او ادواتها علماً بانه اذا فعل ذلك اقتضى عليه ان يوقف العمل وان يبذل بلا نتيجة وقتاً واموالاً من رأس ماله المحدود وهو يدرك بانه اذا حدث للآلة ما يصير صيرها تقف حيناً وتنقطع فوائده وفائدتها ولذلك يجد من نفسه داعياً الى القبول بتعديل آلته على ان يغير ادواتها القديمة بادوات جديدة ولكن بدون ان يوقف الآلة ويقلل من عملها

يعتقد الانكليزي بالضعف البشري ويعترفون بضرورة اخذ الامور بالتدرج والبداءة بها من الصغير للوصول الى الكبير حتى لا تتعب الفطرة في هذا الجهاد والجمهور في معظم الامور منهم انهم اذا شرائعهم يكتفون بتعديلها واصلاحها مع الزمن وما حدثتهم انفسهم ان يضربوا بها عرض الحائط ويضعوا غيرها من عند انفسهم . ولكن الانكليزي مع هذا اذا رأى احد في تعديل قانونه صبر عليه فقد رأينا اصحاب الصحف على عهد الاصلاح البرلماني الكبير قد صعب عليهم ان يصدروا منشوراتهم الدورية لانه فرض عليهم ان يلصقوا على كل نشرة طابعاً باهظ الرسم بل ان يصدروها بدون طوابع تقررها الحكومة بحسبهم ولكن جرائدهم ومنشوراتهم ظلت تصدر على عادتها بدون طوابع وصبروا الا رغمها مضت اربع سنين على هذه المسألة وقد حبس لاجلها زهاء خمسمائة رجل ثم اضطرت دار الندوة ان تجيب الطلب وان كانت الحكومة تضررت من هذا النسخ المهم في الجباية

يفضل الانكليزي حباً باعمال نفسه كل حين عمل غيره من الامم الاحوال المثمرة التي تعقب الشرف او الراحة والرفاهية والقليل على ذلك ما تراه في اهل الطبقة العالية منهم من لهم من ثروتهم ما يغنيهم من تعاطي اي عمل كان . تراهم يصرفون نصف ايامهم في الالعاب الرياضية الشديدة ولا يرون فكأن الرياضات لهم كالفطرة المتحركة كما كانت الالعاب الاولمبية في يونان ايام عزهم ثم انك لا تجد شاباً لا يصرف شطراً من وقته في النظر في شؤون مقاطعته وابرشيته ، وكثيراً ما رأيت ابناء الاشراف في هذا الجيل على حين تجد ابنه في اوستراليا او عاملاً يعيش مع رعاة الغنم في تلك البلاد النائية المنفردة وابنه الآخر من المرسلين في جنوبي افريقية يحمل مشاق الاعمال

ويمتاز الانكليز عن اكثر الامم تمسكًا بما فيه عوائدهم والحرص التام على التمتع بالحرية الشخصية والحرية المدنية كحرية الاجتماع وحرية الكلام وحرية القول وهو في نظام أسرته قد احتفظ حتى الآن بنظام الحكم المطلق فترى الابنة تأتي زوجها بدون ان يعطيها والدها بائنة لان العادة جرت بين الاغنياء وارباب اليسار ان يحفظوا لبكر الاولاد العقارات ويجمعوا الاشياء المنقولة به ويعطيه الاصغر منه سنًا وتنال الابنة حصة من ذلك . يكون في الاغلب دخلًا قليلًا تدفعه من واردات ابيها . حرمت من ذلك حتى لا تجيء دار زوجها بغير [illegible] عليه لان الرجل يريد ان تكون لهم السلطة التامة في بيوتهم حتى اذا اتفق ان ازواجهم جاؤهن بشيء من المال يضيفونه الى ثروتهم ويحرمونهن حتى من الوصاية الى الاولاد ومن التصرف باموالهن . عادات قديمة ورثوها فحافظوا عليها وان كان ابطال القرون الوسطى في اوربا قد اعلوا من شأن المرأة لانه من عاداتهم الاخذ بايدي الضعفاء والعاجزين فان انكلترا لم يدخل عليها هذا التلطف والابنة مع زوجها وما يختار لا ما تختار هي . وترى الوالد والوالدة يربيان ابنهما بعيدًا عنهما ولا يأخذه ما شغفه في ذلك والولد اذا غاب عن والديه [illegible] واذا حل بين ايديهم يحترمهما .

هذه بعض صفات الانكليز ومنها [illegible] ارتقاءهم المادي والادبي الذي جعلهم المثل الابيض الباهر [illegible] الامم [illegible] و[illegible]